العربي السفير
جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان
الخميس 6 تشرين الثاني 2014 ـ الموافق 13 محرم 1436 هـ ـ العدد 12915
AS-SAFIR Arabic political daily – November 6, 2014 N° 12915

1 | 15

نصان يحاولان رصد الانخفاض العالمي لأسعار النفط. الأول يتناول «السعودية: حسابات السياسة وحسابات السوق»، والثاني يتساءل عن مقدار سلامة استناد مصر إلى الدعم السعودي.
2

عن البصرة وخرابها، أحوال حاضرة العراق الكبيرة، بؤسها وتريّفها والإهمال المديد الذي يطالها. والمبتعثون السعوديون الى الجامعات العالمية، حوادث قتل تثار بحجتها أسئلة جوهرية.
3

أطفال سوريا اللاجئون في مصر بين تدبر الحياة والدراسة أو المغامرة بركوب زوارق الموت. وموسم قطاف الزيتون في فلسطين الذي يحل اليوم، في «حلم» وفي «بألف كلمة».
4

الطبقة الوسطى في مصر
بين النفور من السياسة والاضطرار لها

يتشكل الفعل السياسي في مصر بشكل جديد مبني على تبلور في الوعي الطبقي. فقد باتت عمليات التأطير والخطاب تجادلان بشكل علني باسم الطبقة. وكانت الطبقة الوسطى العليا قد تحركت مرتين بشكل جذري على مدار السنوات الأربع الماضية، الأولى في موجة «25 يناير 2011»، حينما انخرط في الحدث جانب واسع من شبابها، والثانية في «30 يونيو» ضد سلطة مرسي.

الثورة ذهبت إليهم وليس العكس

في المرة الأولى، لم يتلازم الحراك مع خلفيته الطبقية، وصار الشباب منقطع الصلة بطبقته ومتجاوز لها، يصنِّف نفسه في خطابه، أو يصنَّف في الإعلام أو عند تناوله في التحليل الأكاديمي، كشباب ثوري يحمل أفكاراً وأحلاماً، ولكنه لا يمثل حقبة من المصالح والتموضع الطبقيان لشبكة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية. ويرجع هذا لسببين رئيسين. الأول: حَمَل هذا الشباب لواء الثورة وحاول طرح القضية بشكل متجاوز للبعد الطبقي وأيضاً الأيديولوجي، كممثل لقضايا الشعب المصري. الثاني: عدم تمركز أغلب هذا الشباب في مراكز الإنتاج الاقتصادي أو داخل مؤسسات الدولة، وهو من ثم لا يعبر عن قطاع من البيروقراطية، ولا يمثل مصالح اقتصادية لها تمظهرات مادية. والحقيقة أن الحركة كانت معكوسة. فأغلب محاولات الشباب لبناء نقابات مستقلة أو رسمية داخل قطاعات مثل الأطباء أو المهندسين، كانت تجليات لتأثير فعل الثورة وتغللها داخل تلك الشرائح، ولم تكن الثورة تمظهر لحركة تلك الشرائح. أي أن الثورة ذهبت إليهم وليس العكس. ومثلما مثلت هذه الخاصية موضع قوة لهؤلاء الشباب فهي كانت أيضا كعب أخيلهم. فالشبكات الشبابية كانت قائمة على التضامن والصداقة والحلم ومعاداة السلطة بشكلها الصافي ورفض الانتهاك الجسدي ورفض غلق مساحات التحرر أمامها.. إلا انها كانت شبكات معلقة في الهواء دون تمثيل مادي ملموس في علاقات اقتصادية – اجتماعية تعبر عن مصالح وأهداف ملموسة. وكان تمظهرها المادي قائم في الأساس على «استخدام الجسد» لملء المجال والفضاء العامّين. وظلت مطالبها تتسم بالتجريد، مثل مطلبي الحرية والعدالة الاجتماعية.

وهكذا صار الجسد وحدة التحليل لأفعالها ولمطالبها أيضا (مقاومة الانتهاك والتعذيب والقمع والاهانة). ويتماس الجسد مع مطلبها ببناء مجال عام والحق في التأثير والتفاعل البنَّاء فيه. وتمثَّل ذلك في الحضور في مساحة مادية من الشارع، عبر الحضور الجسدي. وبالفعل تحولت مثلاً المستديرة الحجرية بميدان التحرير لرمز ومساحة سياسيين يحاول كل من الثوار والأمن احتلاله من خلال نشر الأجساد به. فالشباب الثوري كان يختلق المناسبات ليعتصم أو يحتج داخل الدوار. وبالمقابل، وإثناء حكم المجلس العسكري، كان يتم احتلال الدوار ذاته بواسطة جنود الأمن المركزي. وخلال حكم مرسي، كان الإخوان يحاولون استباق الآخرين واحتلاله. كان الميدان ساحة للصراع بين تلك الأجساد المختلفة. والآن، وتحت حكم العسكر بقيادة السيسي، تحاصره مدرعات الجيش والداخلية ولا يُسمح بقيام أي فعل سياسي أو ثقافي فيه أو أي لقاء لمناقشة الأمور العامة.

هذه النوعية من الحضور المادي المتمثل بالجسد فحسب، مكَّن الثورة المضادة من اتهام الثوار بأن فعلهم افتراضي وليس له أي تجلٍ مجتمعي ملموس منتشر في مواقع مادية متنوعة. ولعل ابرز تلك الاتهامات (التي تتسم بالصحة) يتعلق بعلاقة الثورة بكل من الدلتا والصعيد، والذي ينعكس في عدم قدرة شباب الثورة على الحشد والتعبئة في تلك المحافظات، سواء بما يخص قضايا عامة أو في أي عملية تصويتية. كما يشير أتباع الثورة المضادة – وبعض النقد الذاتي – دائماً لغياب تمركز الثورة في شكل شرائح وقطاعات اجتماعية: الفلاحين، والعمال، والتجار.. ولا يستطيع الشباب الثوري ادعاء تمثيل العمال الذين يتحركون ويقومون بالعديد من الإضرابات.

في النفور من «السياسة»

في «30 يونيو» 2013، تحركت الطبقة الوسطى العليا وفئة واسعة من أصحاب التجارة والحرف بشكل أكثر تمثيلاً، أي كطبقة وليس فقط كجموع. اتخذ التحرك شكلاً سياسياً تجسد في مناوئة حكم الإخوان.

تمارا نوري – العراق

المثير في الأمر أن هذا التحرك صارت له قابلية أيضاً لإستخدام العنف لإسقاط حكم الإخوان، ولمواجهة الحراك الشعبي المتعدد الذي خلقته ثورة «25 يناير». جانب كبير من الطبقة الوسطى العليا استنفر لوقف ذلك الحراك ولفرض الاستقرار بالعنوة، مثلما جاء على لسان العديد منهم. فنحن كنا أمام خوض الحرب لإنهاء الحرب. إلا ان الحرب يمكنها أن تقف على مستوى المعارك، أما السياسة فهي حالة مستمرة من الجدل والصراع.

يشير الباحث محمد نعيم إلى أن هذه الطبقة في مصر معادية بالأساس لجوهر فكرة السياسة من حيث هي النقاش الفعال لتغير مسار الأوضاع. وقد ساعدت حقبة مبارك على ترسيخ هذا الميل لديها، حيث لم يستدع ما كان يحدث في البلاد تدخلها المباشر، وبالأخص اشتداد الحرب على الإرهاب في التسعينات، وتوسع شبكة مصالح السلطة ذات الطابع النيوليبرالي في مطلع الألفية الثالثة (على الرغم من أن هذه الخاصية الأخيرة كان يفترض بها أن تستنفرها، لأن النيوليبرالية تقضي عليها تعريفا). وهذا الإحجام يتماهى مع المكونات الثقافية السائدة في قطاعات واسعة منها، سواء المحافِظة التي ترى السياسة «عيب» و«جدل» «ومشاكسة»، وأنّ السياسي ما هو إلا شاب «غلباوي»، أو تلك الأخرى التي ترى في ممارسة السياسة خطر على أمنها الشخصي والاجتماعي.

فحكم مبارك هو عصر غياب السياسة عن مصر على كافة المستويات، فلا هو طرَح مشروع قومي، ولا ادّعى قضية تحررية كبرى، ولا انخرط في تنافس عسكري أو اقتصادي. كما لجأ لإرهاب خصومه وترويعهم من خلال جهاز أمن الدولة والمحاكمات العسكرية. وفي المقابل، شجع نظامه على رأسمالية المحاسيب وتوسّع الفساد حتى صار منظومة عمل وآلية لتوزيع الثروة. ومن ثم، فالسياسة لا قيمة لها وهي تعطيل عن محاولة اللحاق بركب المصالح والمكاسب، أو هي طريق الهلاك لأتباعها. وبالطبع، فلا يجب إغفال أنه عصر الحزب الواحد، وأن تركيبة هذا الحزب جعلته ملتقى لشبكات المصالح الاقتصادية والتجارية لأتباع النظام، وهو لم يكن قائماً لإدارة السياسة وإنما لإدارة تلك المصالح وضبطها وضمان عدم تفجر تناقضاتها. وهكذا حُمِّل مصطلح السياسة بدلالات سيئة، شديدة السلبية، وانقلب منطق السياسة من الايجابية والفعالية إلى التسكع والانحراف. فأغلب أبناء الطبقة الوسطى تمت تنشئتهم على مبدأ أن السياسة مضيعة للوقت.

في «ضرورة» السياسة

إلا أن الأمر لم يعد كذلك. فقد صارت هذه الشرائح مطالَبة بالتعاطي السياسي مع الأمور لترسيخ مصالحها ووضعها، سواء كانت مع الثورة أو ضدها. قد تكون الثورة المضادة قامت بخدمة جليلة للثورة، وهي أنها أعادت تشكيل وعي الطبقة الوسطى لنفسها وموقعها من الدولة وعلاقات الإنتاج وجهاز السلطة القمعي المتمثل تحديداً بالشرطة. وقد اضطرتها للتسيس ودفعتها اليه الثورة المضادة، التي كانت بقيادة قطاع كبير من الطبقة الوسطى العليا الرافضة بالأساس للتسييس. إذ تكشف لها أنه اصبح ضرورة للاستمرار، وللعودة لما قبل لحظة 25 يناير. وهي تعيش أزمة داخلية بين شبابها وكهولها، حيث يدفع قطاع كبير من الأول المجتمع نحو الثورة والتسيس لأنه عانى من التهميش والإقصاء وتخلت عنه الدولة بالكلية، بينما يدفع طرفها الثاني نحو إعادة إنتاج نظام مبارك أو على الأقل وقف المد الثوري. ويبدو أن حلم الثاني في أن يحمل عنه آخرون العبء السياسي (مثل تدخل الجيش للإطاحة بمرسي، ولحظة التفويض، ثم انتخاب السيسي كسيد ومهيمن على البلاد للسيطرة عليها ووقف الفوضى والسياسة)، قد أصبح وهماً وحلماً بعيد المنال، إذ أصبحت السياسة أمراً لا بد منه.

لكن بنية النظام لم تكن قادرة حتى الآن على تمثيل هذه الشريحة. فمع الأخذ بالإعتبار أن هذه الطبقة، ومعها شرائح من التجار، دفعت ضريبة كبيرة للعبها دور الثورة المضادة حفاظاً على الدولة العفنة والنظام المنهار، فقد أصبحت لها شهية اكبر للتمثيل السياسي والمشاركة المباشرة في الحكم.. وهو الأمر الذي قد يدفعها للتصادم مع الشبكات الدنيا من الفلول الذين مثلوا جزءاً كبيراً من القطاع غير الرسمي (في علاقات التجارة والجريمة والبلطجة.. معاً).

ويتواكب هذا مع تطلع السيسي للعودة للمأسسة والى الضبط عبر أشكال أكثر هرمية وتماسكاً، بدلاً من رخاوة وأفقية الشكل الذي قدمه الحزب الوطني، الذي أصيب بالسيولة وتغليب الشبكية في أواخر عهده.. الأمر الذي دفع لمعركة واضحة بين اعضاءه حينما بدأوا في منافسة بعضهم البعض في انتخابات 2010.

فالطبقة الوسطى العليا، سواء في أجنحتها الثائرة أو في ما يسمى ب«حزب الكنبة»، أصبح الكثير من افرادها يود تجاوز فكرة تفويض تمثيله السياسي من خلال البيروقراطية العسكرية أو رجال الاعمال الكبار أو الشبكات الدونية من الفلول، إلى أخذ جزء من «الكعكة» السياسية لإدارة مصالحه الطبقية بشكل مباشر. فكبار رجال الأعمال دخلوا في مناوشات صريحة مع سلطة السيسي، تجلت على صفحات الصحف المصرية في الآونة الأخيرة، وترافقت مع تلميحات لترتيبات لم يُعرف مصيرها حتى الآن، ولكن المؤكد هو أن ثمة مسافة بين القيادة السياسية وبينهم، وأن فعلهم السياسي صار أكثر تعبيراً عن طبقة مستقلة نسبياً عن النظام السياسي، بينما كانت علاقتهم بمبارك علاقة تابع بخالقه.

السؤال هو: هل يستغني النظام عن جزء من شرائحه وحلفائه ويستبدلهم بأخرين من مستويات وشرائح أخرى داخل الطبقة الوسطى العليا والبرجوازية الكبيرة؟ وهل يمكن أن يأخذ النظام مسافة من كبار رجال الأعمال لصالح الطبقة الوسطى؟ وهل يمكن استبدال شبكات الزبائنية بأخرى أكثر مؤسسية من خلال البرجوازية؟ ثم، من سيقوم بالمهمات القذرة للسلطة؟ مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الشرائح لن تقوى على القيام بما قامت به الشبكات الدنيا من الفلول، بالأخص أعمال البلطجة وأخذ الخطاب (كلغة وممارسة) إلى أقصى درجات الانحطاط..

علي الرجال

باحث في علم الاجتماع السياسي متخصص في الدراسات الأمنية، من مصر

الإضراب في المغرب: فشل ونجح!

انتهى شهر تشرين الاول/ أكتوبر ولم تهطل الأمطار في المغرب. هذا أسبوع صعب وصلت فيه حرارة الطقس الى درجة غير مسبوقة. تأخر المطر هو أخطر ما يقلق المغاربة. ينظر الناس للسماء أكثر مما ينظرون للعاصمة. في السماء هناك الله الذي ينظر للجميع بعين المساواة. أما في العاصمة فمن لا واسطة له فلن تصل يده إلى الصحن. لذا فعندما تمطر السماء لا يهتم المغاربة كثيرا للحكومة. والآن تأخر المطر فكثرت التوقعات من الحكومة.. والحكومة سعيدة، فسعر البترول الذي نحتاجه جدا ينخفض. الدولار الذي نبيع به الفوسفات يرتفع. وزير الداخلية يحب أحزاب المعارضة وهي تحبه. هذا على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، فالعلاقات متوترة مع الجزائر بعد إطلاق الجيش الجزائري للنار على مواطنين مغاربة على الحدود. ومتوترة مع فرنسا التي حاولت توقيف رئيس المخابرات المغربية وتزعم أن المغرب فيه إرهاب وتحذّر مواطنيها (يسمون في الرباط رعاياها) من زيارة مراكش. من حسن الحظ أن أسبانيا — وهي ضرّة فرنسا في المغرب — قررت تكريم رئيس المخابرات.

وفي ظل توتر العلاقات مع الجزائر وفرنسا تحرص نخب الرباط على رص الصفوف. في هذه الأجواء جرى أول إضراب عام في المغرب في عهد الملك محمد السادس. والسبب هو مشروع رفع سن التقاعد إلى 65 سنة للموظفين المدنيين، مع زيادة الاقتطاعات من أجورهم لكي لا يفلس صندوق المعاشات.

أنا موظف مدني وقد قضيت يوم الإضراب في 29تشرين الأول/أكتوبر بالرباط رفقة شاعرين عراقيين يعتبران المغرب جنة. كانت الأجواء هادئة بالعاصمة. شاهدنا معرضا تشكيليا وتحدثنا عما يجري بين المحيط والخليج، وتغذينا في مطعم وشاهدتُ فيلمين، وفي المساء ظهرت الصحف تحمل مشكلة: هل نجح الإضراب أم فشل؟

الجواب: فشل ونجح.

فشل بالنسبة لأنصار الحكومة ونجح بالنسبة لخصومها. ما نسبة النجاح والفشل؟ التناقض المطلق نفسه: نجاح مطلق وفشل مطلق. أعلنت النقابات وصول نسبة المشاركة في الإضراب إلى 83،7 في المئة. كتبت جريدة الصباح «شلل في أهم القطاعات العمومية». بينما كتبت جريدة الأحداث المغربية «الإضراب العام: الاستجابة أقل من التعبئة لأنه تحول إلى شبه إضراب قطاعي في الوظيفة العمومية». من جهتها كتبت جريدة «ليكونوميست» أن الإضراب كان هدفه اجتماعي ثم صار هدفه سياسي، وهو مضر بالاقتصاد. وأنا أصدق هذه الجريدة لأنه في المجال الاقتصادي توجد الحقيقة في الجرائد الفرنكوفونية المغربية، فأصحابها وقراؤها هم المسكون بتلابيب الاقتصاد الوطني. لذا توجد صلة قوية بين كلامهم وموقعهم على الأرض. أما وزير الاتصال الناطق باسم الحكومة فيقول إن «الأمور كانت عادية». أي أن يوم الإضراب يشبه ما قبله وما بعده.

عرف المغرب إضرابات عامة في سنوات 1965، 1981 و1990. كانت النتيجة دموية، وكان للإضراب تبعات سياسية. وبالنسبة للمغاربة فمعيار الإضراب هو ما جرى سنة 1990. فإذا تكرر ذلك سيكون الإضراب قد نجح. سيقرأ خصوم المغرب ذلك وكأن البلد غير مستقر. وهنا سيكون نجاح الإضراب فشلا للوطن. أما إذا فشل الإضراب فسيكون ذلك دليلا على ضعف المعارضة وقوة الحكومة التي يقودها الإسلاميون. وهنا سينجو الوطن وستتضرر صورة المعارضة.

يصعب استخلاص معارف ومواقف من السجال الذي تلا الإضراب. كل طرف يكتب عن أيديولوجيته المستنزفة وليس عما جرى. تتعايش هذه الأصوات ولست متأكدا أنها تتفاعل وتتلاقح. لأن منسوب المزايدة بين المتحاورين فادح. وأحيانا تخرج أسئلة بدائية مثل: هل هذا إضراب سياسي أم لا؟

وبناء عليه فكل غموض في المقال هو انعكاس للغموض في المشهد. السبب؟ إن المتحدثين يريدون أن ينجح الإضراب ويخشون أن ينجح. ستحتاجون جهدا لفهم هذا اللغز.

بعيدا عن صوت راوي المعارضة وراوي الحكومة، فإن هذا إضراب يعرف غيابا غريبا لصوت أحزاب المعارضة. والأغرب أن يطالب زعماء النقابات الذين بلغوا سن السبعين في القيادة ألا تمدد الحكومة سن التقاعد حتى سن 65 سنة. مع هذه التناقضات، كيف أصف الجو السياسي في المغرب؟

يبدو أن التحليل لم يشرح لكم جيدا اللعبة. لننتقل للحكي:

ترافق رجل وأسد، وطيلة الطريق كانا يتفاخران بشجاعتهما. وينسب كل واحد التفوق لنفسه. وعند وصولهما لمفترق طرق ظهر تمثال لرجل يخنق أسدا ويطرحه أرضا. فسارع الرجل يقول: أنظر إلى التمثال، أليس الإنسان هو الأقوى؟

فقال الأسد: لا تتعجل، هذا رأيك فحسب. ولو كنا نحن الأسود ننحت التماثيل لرأيت الرجل مطروحا أرضا.

نجح الإضراب، فشل الإضراب. فمن ينحت التمثال؟

أيهما أقوى الأسد أم الرجل؟ كل مجيب متعجل يتبع الظواهر سيقول الرجل. والحقيقة أن الأسود هي التي انقرضت. ومع ذلك، فكل حزب يزعم أنه من خنق الأسد، فكيف نعرف الحقيقة؟

الحزب الوحيد الذي كان صوته واضحا بعد الإضراب هو «جماعة العدل والإحسان» وهي تنظيم غير معترف به في المغرب. فقد دعا رشيد بوصيري الكاتب العام للقطاع النقابي للجماعة عقلاء الوطن أن يتأملوا في رسائل الإضراب العام لأنه وقد «مر الإضراب في سلمية ومسؤولية وتنفس الكل الصعداء، ينبغي على عقلاء الوطن أن يخففوا التوتر قليلا».

سيخف التوتر لأن الإضراب كان فرصة لتفريغ الغضب وليس لتحقيق أهداف محددة، حيث تمديد سن التقاعد أمر مصيري لميزانية الدولة. ومن علامات أخذ العبرة في الجماعة قول زعيم جناحها الحداثي واسمه فتح الله أرسلان «لا نسعى لإسقاط الحكومة لأنّ مشاكل المغرب أكبرُ منْها».

وطبعا لا تسعى الجماعة لإسقاط النظام لأن ذلك أكبر منها. وبهذا الإقرار فإن الجماعة عامل استقرار قوي المغرب.

ختاما، من نفذ هذا الإضراب الناجح والفاشل معا؟

الموظف العمومي، عماد البرجوازية الصغيرة، وهو الذي هجر النقابات والأحزاب، وقد كان وقودها للضغط على السلطة. استيقظ الموظف صباح يوم الإضراب وقام بتوصيل ابنه إلى المدرسة الخصوصية التي لا تُضربْ، ثم ذهب إلى المقهى ليندد بالفساد ويدعو الله أن تمطر السماء لتكون الخضار بأسعار معقولة لأن الحكومة غارقة في الديون ولن تزيد الأجور.

وهنا يُطرح السؤال على هذا الموظف: هل هذا إضراب أم يوم عطلة؟

إنه يوم إضراب مدفوع الأجر في الوظيفة العمومية. هذا هو المهم. لذا فحتى الذين لم يعلنوا الإضراب يجنون ثماره سواء نجح أو فشل. في انتظار أن يأتي الفرج من السماء أو من صندوق النقد.

محمد بنعزيز

كاتب وسينمائي من المغرب

رفح للمرة.. الرابعة

«محاربة الإرهاب» لا تقاوَم. لا يمكن الاعتراض على إجراءاتها وإلاّ بدا المعترض مشبوهاً أو أبلهاً. وهذا مناخ ممتاز للتغطية على ارتكاب كل الموبقات الممكنة والتعجيل بها، من قصف الطيران الحربي الغربي لبلداننا بحجة داعش، الى العنتريات التي تُقْدم عليها الجيوش المحلية هنا وهناك على امتداد المنطقة لمعالجة قضايا مزمنة، بعضها اجتماعي. وكذلك هي عملية إخلاء بلدة رفح المصرية، وتسوية بيوتها بالأرض، ونقل سكانها وتشتيتهم، وإعلانها منطقة عسكرية وأمنية محظورة على المدنيين: للقضاء على الإرهاب المتنقل بين الرفحين المصرية والفلسطينية، وهما شقيقتان تتوزع سُكّانهما العائلات والعشائر نفسها التي فصل بينها قيام إسرائيل. للقضاء على الأنفاق التي توصل البيوت من الطرفين ببعضها، والتي سمحت بتهريب كثيف للسلاح الى غزة لمجابهة إسرائيل، وتهريب كل أنواع البضائع المكنة، التي لولاها لكانت حال المليون و800 ألف فلسطيني في السجن الكبير أسوأ بكثير مما هي عليه اليوم.

فأنْ تُدمَّر الأنفاق بينما قطاع غزة محاصر تماما يتجاوز موضوع المجموعات المسلحة التي ترتكب هجمات في سيناء. ولا يحل المشكلة أن يقول الجنرال السيسي «وأنا مالي»، ويعتدّ بأنه معني بأمن المصريين وليس بمصائب الكون كلها. لا يحل أولاً مشكلة الإرهاب المصري، أي اللجوء إلى العنف والسلاح الذي اتخذ منحى خطيراً حين راح يستهدف الجنود المصريين ويوقع ضحايا بين المدنيين أنفسهم، ولا يحل ثانياً مشكلة غزة التي لن تتبخر وتختفي من الوجود. سيجد الإرهاب المصري أساليب ومكامن أخرى لحركته في بلاد مترامية الأطراف. بدليل التجارب في البلدان المحيطة. وكلما سال الدم وكلما ارتكبت مظالم، كلما ازدهر المنحى المقابل باللجوء إلى العنف والسلاح. بدليل التجارب في البلدان المحيطة! وأما غزة فتحلم إسرائيل منذ زمن أن يبتلعها البحر. ولكن الخطة الواقعية، الدولية والإسرائيلية والعربية والمصرية، وحتى الفلسطينية في بعض أجزائها.. تقوم على تغيير معادلات القطاع، بالخنق وبالإغراء معاً. كان في القاهرة منذ أسابيع مؤتمر لإعادة إعمار غزة قرر مليارات، تستلمها السلطة. هذا جزء. وتطهير رفح جزء ثان، والحبل على الجرار. ما يجعل القائم اليوم على الحدود بين مصر وغزة مشبوهاً، موضوعياً وبالضرورة. هذا لو نحّينا جانباً كل الاعتبارات الإنسانية التي تتعلق بفظاعة التهجير الجماعي المتكرر.

نهلة الشهال

العربي السفير

ملف

7.6 ملايين دولار يومياً هي تكلفة الحرب على «الدولة الإسلامية» وفق ما أعلن البنتاغون منذ أيام بلسان الناطق باسمه، الأميرال جون كيربي، الذي أكد أنه برغم الكلفة العالية فـ«التقدم بطيء، ولا يمكن تحديد موعد معين لتحقيق اختراق».

السعودية: حسابات السياسة وحسابات السوق النفطية

تزامن هبوط أسعار النفط مع تطورات سياسية وأمنية في المنطقة تمحورت حول الموقف من النظام السوري، والاصطفاف الإقليمي التنافسي بين السعودية وإيران ومن خلفهما الولايات المتحدة وروسيا، الأمر الذي دفع إلى اعتبار تراجع سعر برميل النفط كجزء من خطة أمريكية – سعودية لإضعاف المحور الروسي الإيراني. فما هي تجربة السعودية السابقة مع انهيار أسعار النفط، وكيف تتعامل مع حسابات السياسة وحسابات السوق؟

مراجعة

في مطلع العام 1986 قامت السعودية بخطوتين انفراديتين فتحتا الباب وقتها لما عُرف بحرب الأسعار، وأدتا في الوقت ذاته إلى ترتيبات جديدة وسمت ممارسات منظمة الأقطار المصدرة للنفط (أوبك) منذ تلك الفترة. والخطوتان هما تخلي الرياض عن السعر الرسمي الذي كان تعتمده المنظمة، وتحديدا خام «العربي الخفيف» الذي تنتجه السعودية ويعتبر مؤشر للأسعار، والاستعاضة عن ذلك بما أطلق عليه صيغة «نيت باك» Netback، وهي الصيغة التي تضمن للمصافي هامشا ربحيا بعد حسم كلفة الشحن والتأمين والمصاريف الأخرى، واعتبرت مغرية ووسيلة فعالة لاستعادة السعودية لنصيبها في السوق الذي تدنى الى ما يزيد وقتها عن مليوني برميل يوميا، أي أقل مما كانت تنتجه بريطانيا من بحر الشمال.

أما الخطوة الثانية فهي تخلي السعودية عن لعب دور المنتج المرجح Swing Producer الذي يرتفع بإنتاجه ويخفضه وفق حاجة السوق. وللدقة، فأن الرياض وضعت تصرفها في هذا الجانب تحت بند المسؤولية السيادية وليس الالتزام اتجاه الأوبك. قبل ذلك قررت المنظمة سقفا إنتاجيا معينا لضمان الدفاع عن سعر البترول، وخصصت لكل دولة حصة معينة، كان نصيب السعودية منها هو الأكبر أي خمسة ملايين برميل، كونها المنتج المرجح. لكن الممارسة العملية أوضحت بجلاء انه كلما خفضت السعودية من حجم إنتاجها وردت إمدادات إضافية من أعضاء أوبك الآخرين، وذلك بسبب عدم التزامهم بحصصهم المقررة. وعندها أقدمت السعودية على هاتين الخطوتين اللتين دفعتا سعر البرميل ليهبط الى أقل من عشرة دولارات في بعض الأحيان.

كان الهدف من حرب الأسعار تلك تقليص حجم الإمدادات الواردة إلى السوق، خاصة من خارج أوبك، وذلك لأن تدني السعر يمكن أن يجعل الإنتاج من المناطق ذات الكلفة العالية مثل بحر الشمال غير مجز اقتصاديا، أو يدفع المنتجين من خارج أوبك الى تحمل شيء من العبء وخفض إنتاجهم دفاعا عن السعر. لكن شيئا من ذلك لم يحدث، لأن تلك الحرب لم تستمر فترة كافية لتحقق تلك الأهداف. هذا الى جانب النزف المالي الذي عاشته السعودية نفسها، ودفعها حتى إلى عدم إعلان ميزانية للدولة ذلك العام بسبب اضطراب السوق النفطية وصعوبة تقدير إيراداتها من بيع النفط. ثم هناك الضغوط التي مارستها الولايات المتحدة خوفا على ولاياتها المنتجة للنفط. وللمفارقة فإن ضحية حرب الأسعار تلك كان مهندسها وزير النفط وقتها الشيخ أحمد زكي يماني الذي أعفي من منصبه بعد قرابة ربع قرن من الزمان قضاها في قيادة الوزارة.

(من الانترنت)

ثلاثة اعتبارات

هل يمكن أن تتكرر حرب الأسعار هذه المرة، خاصة والسوق تعاني من تخمة تدفع بسعر البرميل نحو الهبوط؟ قبل الأجابة على السؤال يستحسن ايراد بعض الملاحظات، وأولها ان أوبك تحولت من استراتيجية الدفاع عن سعر رسمي الى استراتيجية جديدة تقوم على زيادة حصتها في السوق والحفاظ عليها. كما انها أعفت السعودية من مسؤولية وعبء المنتج المرجح، ولو أن الرياض، في إطار تفاهم ضمني ومن واقع قدراتها الإنتاجية والتصديرية العالية واحتفاظها بطاقة فائضة، حددت لنفسها موقع من يقوم بإنتاج ربع الإنتاج الكلي للمنظمة، وهي النسبة التي ارتفعت مع غياب النفطَين العراقي والإيراني بسب العقوبات الدولية على هذين البلدين، وحدوث انقطاع من هنا وهناك كما مع فنزويلا ونيجيريا وغيرهما. وقد عوضت السعودية عن تلك الإمدادات الغائبة.

ظلت السياسة النفطية السعودية تتحرك وفق ثلاثة اعتبارات: أن تحافظ على سعر معقول لبرميل النفط لتضمن وجود سوق ومشترين إلى أطول فترة ممكنة، وذلك بسبب احتياطياتها الضخمة التي تشكل ربع الاحتياطيات العالمية المؤكدة، كذلك الاحتفاظ بطاقة إنتاجية فائضة (ما بين مليون إلى مليوني برميل يوميا)، لتعوض بها عن أي انقطاع في الإمدادات من أي منتج، وذلك لتعزيز وضعها الاستراتيجي عالميا. ويذكر انه في العام 2005 استضاف الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش ولي العهد السعودي وقتها الأمير عبد الله بن عبد العزيز في مزرعته في تكساس، وكان على جدول اللقاء بينهما بند وحيد وهو برنامج شركة أرامكو لرفع طاقتها الإنتاجية إلى 12.5 مليون برميل يوميا. أما الهدف الثالث فهو الحصول على عائدات كافية تمكّن الدولة من الوفاء بالتزاماتها المحلية ،من تنمية وخدمات، وكذلك الإقليمية.

وكي تتمكن أي دولة من الدخول في حرب أسعار، فإنها تحتاج إلى التمتع باحتياطيات مالية ضخمة يمكن الاستناد إليها وتحمل عبء الخسائر التي ستتعرض لها، وكذلك وجود إمكانيات تصديرية نفطية حتى يمكن التعويض ولو جزئيا عن تدني العائدات بسبب انخفاض سعر البرميل، بزيادة حجم مبيعات الصادرات. السعودية تبدو في موقف أفضل من غيرها في هذين الجانبين. ووفقا لتقديرات مؤسسات مالية عديدة، فإن المملكة تتمتع باحتياطيات من العملات الصعبة تبلغ 768.5 مليار دولار تمكنت من جمعها خلال السنوات الماضية بفضل ارتفاع حجم صادراتها الذي تزامن مع ارتفاع الأسعار. أما صناعتها النفطية فهي تتميز بمرونة بائنة تتمثل في قدرتها على الارتفاع بإنتاجها إلى أكثر من 12 مليون برميل يوميا، وتعدد منافذ التصدير لديها في الخليج والبحر الأحمر، وفوق هذا الكلفة المنخفضة لإنتاج البرميل التي تبلغ حوالي دولارين وتعتبر الأقل والأرخص في العالم.

وبالإضافة إلى هذا، فإن السعودية نجحت خلال العقود الماضية في المضي قدما في تطبيق استراتيجيتها الهادفة إلى تكرير نسبة كبيرة من النفط الذي تنتجه، وذلك تلبية لاحتياجاتها الداخلية المتنامية من ناحية ولزيادة القيمة المضافة لصادراتها بدلا من تصدير النفط خاما، وهو ما يساعد على استيعاب تقلبات الأسعار، خاصة وأوبك لا شأن لها بالمنتجات المكررة كما الحال مع النفط الخام. فللسعودية ثمانية مصاف داخلية يبلغ إجمالي إنتاجها مليونين ونصف المليون برميل يوميا. وتمكنت هذا العام من بدء العمل في مصفاتي الجبيل التي تنتج بعض البتروكيماويات أيضا مع الشركة الفرنسية توتال، وفي ينبع مع الشركة الصينية صينوبيك، وطاقة كل منهما 400 ألف برميل يوميا، كما يتوقع لمصفاة جازان أن تبدأ العمل في غضون العامين المقبلين بطاقة 400 ألف برميل يوميا كذلك. وللسعودية أيضا مشاركات في سوق التكرير الدولية أهمها تلك التي في الولايات المتحدة والصين واليابان وكوريا الجنوبية، وطاقتها مجتمعة 2.4 مليون برميل يوميا. واذا حسم نصيب الشركات الأجنبية، فأن نصيب شركة أرامكو السعودية في قطاع المنتجات المكررة داخليا وخارجيا يصل الى 4.8 مليون برميل يوميا. وهناك تقارير تشير إلى أنها تخطط لإنفاق 100 مليار دولار في استثمارات جديدة في هذا القطاع لتصل بحجم المنتجات المكررة التي تسيطر عليها إلى ما بين 8 – 10 ملايين برميل يوميا.

حسابات حرب الأسعار

ومع ان السعودية تبدو هكذا مؤهلة أكثر من غيرها للدخول في حرب أسعار وحماية حصتها في السوق، الا ان تبعات مثل هذه الحرب قد تدفعها إلى التريث. وعلى رأس هذه انه حتى قبل التراجع الأخير في أسعار النفط، فأن صندوق النقد الدولي توقع أن تشهد موازنة العام المقبل في السعودية عجزا يصل الى 1.5 في المئة من حجم الناتج المحلي الإجمالي، علما أن تقديرات الصندوق السابقة كانت تتوقع حدوث هذا العجز في العام 2018، الأمر الذي سيدفعها أما إلى اللجوء إلى الاحتياطيات لسد ذلك العجز أو إلى خفض برامج التنمية والدعم الاجتماعي وتوفير الوظائف.. وما قد تؤدي اليه خطوة مثل هذه من تبعات سياسية، خاصة وعدد سكان السعودية قارب 30 مليون نسمة. وكان الإنفاق على هذه الجوانب قد شهد ارتفاعا ملحوظا بلغ 52 في المئة ليصل الى 265 مليار دولار منذ 2010 وبعد اشتعال ثورات «الربيع العربي». وهناك أيضا الدور الإقليمي الذي تقوم به الرياض ويكلفها دعما ماليا كبيرا، مثلما هو الحال مع مصر وغيرها، اذ بلغت التزامات السعودية الخارجية خلال السنوات الأربع الماضية 22.7 مليار دولار. ودفع هذا الوضع الأمير الوليد بن طلال الى تحذير وزير النفط المهندس علي النعيمي، في رسالة مفتوحة، من تبعات تدهور أسعار النفط على البلاد.

من ناحية ثانية، هناك من يرى في تراجع أسعار النفط الى ربما أقل من 80 دولار للبرميل، كما يلمح المسئولون السعوديون، خطة تشارك فيها الرياض واشنطن لإلحاق الأذى بالإقتصادَين الروسي والإيراني الذين يعتمدان على عائدات مبيعاتهما من النفط بنسبة تصل إلى نصف إيرادات الدولة للأولى ونحو 60 في المئة لإيران، وذلك بسبب موقفهما الداعم للنظام السوري. ومع ان الرابط بين النفط والسياسة لا يمكن استبعاده، إلا ن العامل الأساس الذي لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان ان السبب في تراجع سعر البرميل يعود بصورة رئيسية الى وفرة العرض، خاصة من قبل الصناعة النفطية الأميركية التي أصبحت منافسا قوياً، بدليل تجاوزها هذا الشهر لكل من السعودية وروسيا، كأكبر منتجين للنفط والسوائل الأخرى. وعليه فخفض الأسعار يبدو في حقيقته رد فعل مرتبط بالسوق أكثر منه فعلا لتحقيق أهداف سياسية.

أهم من ذلك، فأن زيادة الإمدادات النفطية الأمريكية يمثل تحولا استراتيجيا كبيراً، وذلك لأنه يستند الى تطورات تقنية جعلت من الممكن استخراج النفط والغاز من مناطق ومكامن لم يكن واردا العمل فيها في السابق. وربما يسهم تراجع الأسعار الى ما دون 70 دولارا في تحقيق أكثر من ضربة وفي أكثر من اتجاه هذا إذا اشتعلت حرب الأسعار فعلا واستمرت وقتا طويلا لاضعاف كل من روسيا وإيران، وفوق ذلك لتحجيم النمو في الإنتاج النفطي الأميركي المحلي. لكن يبقى السؤال عن الوقت الذي ستستغرقه هذه الحرب وتبعاتها الجيوستراتيجية والأمنية، وإذا كانت الرياض على استعداد لتحملها.

السر سيد أحمد

كاتب صحافي من السودان متخصص بقضايا النفط

مصر والخليج.. خطورة الاستناد إلى «حَيطة مايلة»

«مؤتمر مصر الاقتصادي» هو المسمى المهذَّب لـ«مؤتمر المانحين». وقد دعا إليه الملك السعودي دعماً للاقتصاد المصري، وهو سيعقد في شباط المقبل. المتابع لسيل الإخبار عن المؤتمر في وسائل الإعلام المصرية يدرك حجم الآمال العريضة التي يعقدها المسؤولون عنه لجلب الاستثمارات الأجنبية.

يمكن استخلاص مقولة مبسطة مما سبق: الاقتصاد المصري لن يعتمد على المنح والمساعدات كما في العام المالي الماضي، أو ليس بالمقدار نفسه (الذي بدأ بعد إطاحة الرئيس المعزول محمد مرسي وعندما خلفته سلطة انتقالية مدعومة عسكرياً)، لكنه سيعتمد على السعي لجلب استثمارات أجنبية، وبالذات من الخليج الذي تتوقع وكالة «موديز» استمرار «التزامه» بدعم الاقتصاد المصري.

قد يتضمن التعهد بالتخلي النسبي عن المنح والمساعدات منحى اكثر استقلالية في إدارة الاقتصاد. لكن بالمقابل، فالاعتماد على الاستثمار الأجنبي لا يتضمن الا المزيد من «التعرض» لمتغيرات الاقتصاد العالمي. وثمة متغير رئيسي في هذا السياق، هو أسعار البترول المتراجعة، بما تتضمنه من تأثير على موازنات الخليج نفسه الذي يفترض انه الحائط الذي يستند عليه الاقتصاد المصري.

ومدى مَيل هذا الحائط ـ وفقاً للتعبير المصري، في إشارة لترنحه ـ يعتمد على مدى اعتماد هذه الاقتصادات على عائدات البترول من ناحية، وعلى مدى تراجع أسعار البترول من ناحية أخرى.

الحائط مائل بشدة

بحسب تقرير «الآفاق الاقتصادية والتحديات على صعيد السياسات في دول مجلس التعاون الخليجي» الصادر عن صندوق النقد منذ عام بالتمام، تتصدر الكويت دول الخليج من حيث مدى الاعتماد على إيرادات الهيدروكربونات (نحو 82 في المئة من ايراداتها الحكومية)، وتليها السعودية (80 في المئة من تلك الإيرادات). والنسبة في عُمان تزيد عن 60 في المئة وهي 50 في المئة في قطر، وفي البحرين 35 في المئة، تليها الإمارات 32 في المئة.

ووفقاً للتقرير ذاته، فقد بلغ العجز الاولي غير النفطي في الموازنة العامة ما يقرب من 100في المئة في الكويت و35 في المئة في السعودية، وما يقرب من 55 في المئة في قطر، ونحو 60 في المئة في عُمان، و نحو 25 في المئة في الإمارات، ونحو 12 في المئة في البحرين. و«تستخدم نسبة عجز المالية العامة غير النفطي الى اجمالي الناتج المحلي غير النفطي كمقياس لموقف المالية العامة في تلك الاقتصاديات» تبعاً لما اوضحه التقرير.

خطاب الأزمة في السعودية

حجم المأزق الذي تواجهه السعودية بالذات، ربما يتضح جيدا من خطاب الأمير الوليد بن طلال في 13 تشرين الأول، الموجه لوزير البترول السعودي علي بن ابراهيم النعيمي، مستنكراً فيه تصريحاته التي قلل فيها من تأثير تراجع اسعار النفط في أيلول الماضي الى ما دون 100 دولار للبرميل. ذكر الوليد بن طلال بأن «90 في المئة من ميزانية الدولة لعام 2014 تعتمد عليه (ايرادات النفط)»، وأن «ميزانية المملكة للعام 2014 بنيت على أساس أن سعر برميل البترول في حدود من 80 الى 90 دولاراً»، وأن صافي التخفيض (لحجم الإنتاج السعودي من النفط) 300 ألف برميل تقريباً. وقدر الخسارة بسبب تخفيض الإنتاج بـ3.24 مليار دولار في الأشهر الأربعة القادمة، وقال إن استمرار الوضع الحالي العام القادم يعني خسارة تصل الى 51،1 مليار دولار.

وطرح الأمير عدداً من المقترحات في خطابه الذي نشرت البورصة السعودية نسخة منه، كما يلي: «خطورة الاستمرار في الاعتماد الكلي على البترول في ميزانية الدولة، ضرورة تنويع مصادر الدخل وضرورة تفعيل خطط إنتاج الطاقة الذرية والشمسية والمتجددة»، بخلاف توكيده على ما يطالب به منذ خمس سنوات، تبعاً لما قال في خطابه، وهو تخفيض ميزانية الدولة.

وتواجه السعودية خيارات صعبة فيما يتعلق بالأسعار، إذ «من الواضح أن المملكة قررت الحفاظ على حجم إنتاجها، وتحمّل انخفاض الأسعار. وفي الواقع، تساهم السعودية في تخفيض الأسعار من خلال خصم أسعارها الخاصة في المبيعات التعاقدية لعملاء في آسيا»، حسبما يقول سايمون هندرسون وهو مدير برنامج الخليج وسياسة الطاقة في معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، ويرى أن»التفسير الاقتصادي المقبول على نطاق واسع لهذه المنهجية هو أنه من خلال تخفيض الأسعار، يستطيع السعوديون إبعاد بعض المنافسين العالميين الذين يستخدمون أساليب إنتاج ذات تكلفة أعلى، مثل الشركات الكندية التي تنتج النفط الرملي والشركات الأميركية التي تنتج النفط الصخري». وبالإضافة إلى ذلك، فالحفاظ على الأسواق مهم أيضاً بالنسبة للرياض، لا سيما في منطقة آسيا التي تشهد منافسة في هذا القطاع، والتي يمكنها أن تتحول بسرعة نحو مصادر غير سعودية مثل العراق، إذا ما خفضت المملكة من الإنتاج في محاولة منها للحفاظ على ارتفاع الأسعار، تبعا لأندرسون.

الإنفاق لمواجهة المخاطر الداخلية ام الإقليمية

تواجه دول الخليج إجمالاً، والسعودية بالذات تحدياً يتعلق بصعوبة خفض الإنفاق بمقدار مرونة انخفاض الإيرادات النفطية لأسباب سياسية. وهو ما يعبر عنه اندرسون قائلا إن «العقد الاجتماعي الضمني للمملكة هو: أن شعبها يتقبل افتقاره للحريات الديموقراطية نظراً إلى الكرم الأبوي لعائلة آل سعود». لكن تقرير مشاورات المادة الرابعة، الصادر عن صندوق النقد الدولي للعام الحالي، توقع في المقابل انخفاض فائض المالية العامة السعودية. وقال التقرير إنه «من المتوقع استمرار النمو القوي في المصروفات على السلع والخدمات والمشروعات الرأسمالية، وبالتالي تراجع فائض المالية العامة الى 2.5 في المئة فقط من إجمالي الناتج المحلي في 2014.. ويؤدي مسار الإنفاق على هذا النحو وتراجع الإيرادات النفطية إلى عجز كلي في المالية العامة في 2015 يُتوقع أن يتفاقم ليصل إلى 5،7 في المئة تقريباً من إجمالي الناتج المحلي في عام 2019».

ولأن القطاع الخاص في الخليج لا يتمتع بالاستقلال الحقيقي عن القرار السياسي الحكومي، مع ارتباط كبرى الشركات بالحكومة، فمن البديهي أن يكون التساؤل يتعلق بأولوية الاستثمار، هل هو داخل حدود السعودية ام في مصر في ظل الأزمة الحالية.

حدود الأزمة

ما يشير إليه أندرسون عرضاً عن المنافسة الكندية والأميركية والعراقية، ليس ألا جانباً واحداً من جانبي أزمة سعر النفط، على نحو قد يبدو معه من المنطقي النظر الى تراجع الأسعار بوصفه يقوم على أسباب ليست عابرة.

فاتجاه الولايات المتحدة لزيادة إنتاجها من النفط ومن نصيبها في السوق العالمي لا يمكن تجاهله، خاصة بعدما سمحت وزارة التجارة الاميركية لشركتين بتصدير المكثفات النفطية على نحو فسر كتحول تاريخي عن السياسة التي انتهجتها الولايات المتحدة طوال اربعة عقود بحظر تصدير الخام. ووصل إنتاج الولايات المتحدة اليومي من النفط مطلع العام 2014 الى ما يقرب من تسعة ملايين برميل.

وتتزامن هذه الزيادة في الانتاج الاميركي مع تبدد المخاوف بعض الشيء بشأن انخفاض العرض من النفط الذي تنتجه ليبيا والعراق في الربع الثالث من العام 2014.

وتتوقع الوكالة لدولية للطاقة زيادة الطلب العالمي بواقع 0.7 مليون برميل يومياً في العام 2014، وهو ما يعد اقل توسع في الطلب منذ انكماشه على خلفية الازمة الاقتصادية في العام 2008. ويتوقع البنك الدولي في تقرير توقعات سوق السلع العالمي في تشرين الأول استمرار التراجع الكبير في أسعار النفط مع ترشيد استخدامه والتحول عنه أصلا إلى مصادر أخرى للطاقة في الدول المتقدمه.

بعبارة أخرى قد يكون الاقتصاد المصري مرتكناً الى حائط مائل يستند بدوره الى حائط مائل!

بيسان كساب

كاتبة صحافية من مصر، متخصصة بالاقتصاد

غرافيتي في أحد شوارع القاهرة (من الانترنت)

السفير العربي
6 تشرين الثاني 2014 ـ العدد 12915
Thursday November 6, 2014

قضية

12 فائزاً بجائزة نوبل للسلام دعوا الرئيس باراك اوباما إلى كشف كل المعلومات حول استخدام التعذيب من قبل الأميركيين بعد اعتداءات 11 أيلول 2001، وطالبوا بنشر تقرير محجوب للكونغرس حول تقنيات الاستجواب التي استخدمتها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

عن البصرة وخرابها

... «بعد خراب البصرة» هو مثلٌ كناية عن حدث يقع بعد انتفاء الحاجة إليه. وقد عَمّ المثل بعد أن أُحرقت البصرة اخصاصاً وبيوتا وحارات، عشية سيطرة الزنج وصاحبهم علي بن محمد عليها (255 ـ 270هـ)، فكان هذا خرابها الأكبر، بعد خرابين مرا بها. حَكمها الزنج نحو عشرين عاماً، وفشلت محاولات الخليفة العباسي المعتمد احمد بن المتوكل باستعادتها، إثر حملات تصطدم بمانع القوة وطبيعة الأرض، حتى استرجعها متأخراً خرِبة مدمرة، فذهب المثل بين الناس انه «نصر بعد خراب البصرة»، ومنها سميت ايضاً بـ«الخَرِبة».

لكن فاصل القرون بين الحادثة التي أسست المثل واليوم، لم يُلغِ الخراب. فالبصريون يتفقون أن مدينتهم لم تكن هكذا، ويصرّون على أن البصرة، التي تقع في أقصى جنوب العراق، ليست بخير، فهي مُستغلّة ومهمشة من قبل الحكومة المركزية في بغداد، مع أن معظم وارادات العراق المالية تأتي من حقولها النفطية، بينما لا يحصل أبناءها إلا على المزيد من الدمار والتلوث والسرطانات، إذ لا يوجد في البصرة حركة إعمار حقيقية، ومعدّلات الفقر فيها متصاعدة، والخدمات متدنيّة، فضلاً عن أنها لم تعد مركزاً اقتصادياً كما كانت، بالرغم من كونها تقع على حدود العراق مع ثلاث دول هي إيران والكويت والسعودية، وتعتبر المنفذ البحري الوحيد في العراق عبر موانئها الخمس.

سندس عبد الهادي – العراق

الرحلة الأولى

«اذهب إلى شارع الوطن»، أوصاني والدي عام 2011 وأنا أقوم بأوّل زيارة للبصرة. وهو زار الشارع الذي يتوسط المدينة حينما كان يغصّ بالسياح، وبالنوادِ الليلية والمطاعم الفارهة. «شارع لا ينام» أخبرني. لكني لم أجد أياً من هذا حين وصلت الى الفندق الذي سكنته هناك. سألت البصريين عنه، فقالوا هو ذاته: ثمّة فاصل بين زمنين، فهو شارع مهجور يغط في الظلام، محلاته مغلقة، والكلاب تصول وتجول على أضلاعه، وكأن نباحها شهادة على خوائه.

ومن يتجوّل في شوارع البصرة يعرف أن القمامة أمر ملازم لها، تبحث الحكومة المحليّة عن شركة لرفعها من الشوارع بعد أن فشلت البلدية في الأمر، وقد اتفقت أخيراً مع شركة كويتية لرفعها من المركز (فقط) لمدة ثلاث سنوات بعقد بلغت قيمته نحو 200 مليون دولار. لكن يبدو أن هذا الاتفاق أيضاً فيه شبهات فساد، فحتّى أكثر المناطق رفاهاً تغصّ بأكياس القمامة السوداء التي عبثت بها القطط والكلاب.

حسناً، سأنفذ الوصيّة الثانية، وهي التنعم بأكل السمك، رخيص الثمن وذو مذاق خاص يميزه عن سمك بقية المناطق العراقية . إلا أن المفارقة هذه المرّة هي ببيع الأسماك بسعر مضاعف عمّا هو موجود في العاصمة: «هذا سمك بغداد»، قال البائع. مهنة صيد السمك أيضاً انحسرت نتيجة ارتفاع اللسان المِلحي في شطّ العرب، ولم يتبقّ سوى المئات من الصيادين في المحافظة من أصل 30 ألف كانوا يمارسون المهنة المتوارَثة، ولم يتبقّ أيضاً سوى 400 زورق صيد من أصل 1500، بعد أن تعرّض الصيادون إلى عدّة اعتقالات من خفر السواحل الإيرانية والكويتية، وفقاً لجمعيّة الصيادين.

وبالعودة إلى «شارع الوطن» القريب من كورنيش شطّ العرب، فهو بلا ليل، لأنه في عام 2009 فُجّرت فيه أكثر من 7 محلات لبيع المشروبات الكحولية. والأحزاب التي توالت على إدارة البصرة لم تعد تسمح بالحياة الليلية، وتقف بالضد من الحانات والخمر. ومن أجل هذا شرّع مجلس محافظة البصرة قانوناً يغرّم بموجبه كل شخص يصنع أو يبيع أو يشرب الكحول في مكان عام أو يستورده، بمبلغ 4700 دولار، أو يسجن 6 أشهر.

الخمر وحده لا يلغي الليل، لكن في البصرة العوائل لا تستطيع التنزه، كما كانت، على كورنيش شطّ العرب بسبب استغلال المراهقين له لعدم وجود أماكن ترفيهيّة أخرى. السياحة غادرت المدينة بعد أن كانت مزاراً لعوائل دول الخليج العربي وكذلك لسكان العراق. ذهب جوّ المدينة المعتدل في الشتاء، فيما تحول شطّها إلى مجرد ديكور باهت لا طائل منه.

إلا أن انعدام السياحة لا يحدّ من بناء الفنادق، فهي مشروع مربح لتجّار الصدفة الذين أنتجتهم أحزاب ما بعد 2003. هذه البنايات الفارهة التي تتناطح على ضفاف شطّ العرب ستكون مناماً لموظّفي شركات النفط الأجنبيّة، هؤلاء يسكنون هنا بأسعار تتجاوز 600 دولار لليلة الواحدة، ومن الممكن أن يقوموا بتأجير غرف لطواقمهم لمدّد تمتد أحياناً لأشهر. سأسمع عن أسماء محدّدة تقوم بهذه الأعمال، وستلحقها تبعيّتها لهذا الحزب أو ذاك، فأهل البصرة أعرف بسرّاق مدينتهم.

العائلة والعشيرة

بقيت البصرة حاضرة مدنيّة بالرغم من القصف الذي دمّر بنيتها التحتيّة إبان الحرب العراقيّة الإيرانية، تبعتها الحرب المهولة التي شنها التحالف الدولي لإخراج القوات العراقية من الكويت، ومن ثم الانتفاضة التي قام بها سكان الجنوب ضد نظام صدام حسين عام 1991 والتي انطلقت شرارتها من ساحة سعد الواقعة في قلب البصرة. حتّى ذلك الوقت كان صوت «المؤسسة العشائرية» منخفضاً، إلا أنه تصاعد بعد منتصف التسعينيات، حين ضعفت الدولة، وشجّع نظام البعث شيوخ العشائر على تطبيق سننهم العشائرية مقابل إبداء الولاء له. ولا ينتمي أغلب سكّان البصرة إلى العشائر وإنما إلى العوائل، وقد نزح إليها المطلوبين عشائرياً من محافظات الجنوب الأخرى، بالإضافة إلى العاطلين عن العمل بسبب توقّف الزراعة في ظلّ الحصار، حتّى تشكّل مجتمع بدوي – ريفي طغى على المجتمع الحضري. وقد يكون غياب أسماء العائلات البصرية الأصلية وحلول الألقاب العشائرية محلّها من أهم سمات التلاشي المدني.

إثر ذلك، ارتفع عدد سكّان البصرة خلال عقدين من 600 ألف إلى حوالي 3 ملايين نسمة، فخلّف هذا النمو السكاني السريع والمتصاعد آثاره السلبيّة، إذ تحتفظ البصرة لنفسها بنسبة 14 في المئة من السكن العشوائي الموجود في العراق، وهي تحلّ ثانية بعد بغداد، لا سيما أن أسعار الأراضي والمنازل فيها تعتبر الأغلى في عموم العراق، بعد أن عجزت الحكومات المحلية عن إيجاد مخطّط لتوسعة المدينة. والاكتظاظ له منافعه ومثالبه، فللبصرة 35 نائباً في مجلس النواب العراقي بسبب عدد نفوسها، لكن في الوقت ذاته ارتفعت نسبة الفقر من 3.3 في المئة عام 2007 إلى 16.1 عام 2011، وتبلغ نسبة البطالة فيها حوالي 15.4 في المئة من مجموع سكان المحافظة. وهذا بالإضافة إلى أنواع متعددة من مرض السرطان تستشري في أجساد البصريين بسبب اليورانيوم الذي استعملته القوات الأميركية في حربي «عاصفة الصحراء» و«تحرير بغداد» (تحذر الهيئة الدولية للبيئة والطاقة في «الأكاديمية الملكية الدولية» بأن نصف سكان البصرة سيصابون بأمراض سرطانية في حدود عام 2020). وهناك أكثر من 300 ألف طفل في البصرة يعانون من الحرمان بجميع أنواعه، وفقاً لليونسيف.

عشاق تحت الباذنجانة

المدينة التي تلاقحت ثقافياً مع من حملته البحار إليها، لتصير إحدى المحافظات الأكثر انفتاحاً في البلاد، سكت فيها صوت إيقاع الطبول السريع المرافق لرقصة «الهيوه»، الذي تختص به المدينة، والموروث من ايام ثورة الزنج، ولبست المدينة السواد كاملاً.

لكن البصرة التي استدرجت فيها واحدة من أشد الحركات الإسلامية تطرّفاً الحزب الشيوعي ليدخل معها في تحالف أثناء انتخابات مجالس المحافظات التي جرت في العام الماضي، ما زال فيها شبّان يُصارعون من أجل استعادة هويتها المدنيّة. ففي منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر الماضي، أسس شبّان مبادرة «جسر الحب» عبر تقليدهم لجسور الحب المتوزّعة في فرنسا، وحصلوا على الموافقات من الحكومة المحليّة، ووضعوا الأقفال التي كتبوا عليها اسمائهم وأسماء حبيباتهم على الجسر ورموا المفاتيح إلى النهر. إلا أن أقفالهم أيضاً أخذت طريقها إلى القاع بعد أن قام متشددون بخلعها، وقالت ميليشيا متنفذّة عن المبادرة أنها ترمي إلى الضلالة، ووصفتها بأنها «بدعة».

كانت هذه المبادرة بمثابة جرس الإنذار للأحزاب المتشدّدة، فقد تحدّت شابات القيود الموضوعة على النساء في البصرة، ووضعن الأقفال كما فعل الشبّان. أُهمل الجسر، وغفت الأقفال في قيعان الماء، لكن الشبّان سرعان ما وجدوا مكاناً آخر لحريّتهم، فجلسوا تحت «نصب الحريّة» الذي افتتح مؤخراً، وهو صنع بطريقة ساذجة ومتخلّفة فصار شكله يشبه الباذنجانة. في هذه الساحة يجلس الشبّان والشابات إلى جانب بعضهم، بعد أن قامت الحكومة المحليّة بقصّ الأشجار الكبيرة في الجامعات خشية من «خلوة» الطلبة والطالبات. شهدت «الباذنجانة» مبادرات مدنيّة لمساعدة المكفوفين، وتشجيع الأطفال على فنون الرسم والموسيقى. ويعتقد الكثير منهم أن التمثال مشوّه، لكنهم يقولون ان لا مكان لهم غيره. البصريون رضوا بالقليل من أجل ممارسة حياة طبيعية، يجد المرء في هذا المكان نساء بلا حجاب.

البصرة.. مشروع إقليم؟

سوء حال البصرة يدفع بعض سكّانها إلى الشعور بأن استقلالها، ليس كإقليم فحسب وإنما كدولة، سيجنّبها كل هذا الخراب، وسيُعيد إليها مجدها كونها أولى الحواضر في العراق (إذا ما أُستثنينا حضارتي بابل وسومر عن هذه المفاضلة). فحواضر العراق كانت البصرة والكوفة فحسب، قبل أن تكون بغداد التي أسسها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور عام 146 للهجرة.

المدينة التي ترزح تحت هذا الركام، تتسلّم موازنة سنويّة جبارة، فايراداتها من برنامج البترودولار (5 دولارات عن كل برميل نفط خام مستخرج من ارضها) تفوق موازنة مملكة الأردن لمرّتين أو ثلاث، ويديرها مسؤولون من الأحزاب نفسها التي تدير الحكومة المركزيّة، وهؤلاء يعملون على إبقاء البصرة على حالها وإبعادها عن دائرة المركز.

ونظرة على حجم الفساد والخراب الذي أصاب المركز نتيجة فساد حكوماته المتعاقبة، ستجيب عن التساؤلات التي تتوالد عن أسباب الفساد والخراب في البصرة. والحل ليس في تحويل البصرة الى إقليم كما يطالب بعض نواب ومثقفي المدينة، وليس بانفصالها عن العراق كما يطالب البعض الآخر، بل باستعادة المدينة من براثن الفاسدين وإزاحة الغبار عن وجهها المدني الذي تآكل بسبب الأفكار والممارسات التي لا تقيم لتاريخ المدن وزناً.

عمر الجفّال

كاتب صحافي من العراق

المبتعثون السعوديون: أسئلة تثيرها حوادث

غالباً ما يبدأ الأمر بالاختفاء. اختفاء في الأثر، ومراجعةٌ سريعة لآخر ما كُتب أو نشر على مواقع التواصل الاجتماعي من تويتر وفايسبوك وغيرها، وتحليل نفسي يقطع في فرضية أن يكون الشاب مغرّر به من قبل مجموعات الوعود الخلافية ومحاربة الكفار.. لينتهي الأمر بجثّة باردة مرميةٍ في صحراء بعيدة.

شهر طويل عاشه ذوو الطالب عبد الله القاضي. انقطع التواصل الهاتفي مع أخيه الساكن بقربه في ولاية من الولايات المتحدة الأميركية. أربع سنوات كان قد قضاها في هذه البلاد ضمن برنامج الابتعاث الذي يستفيد منه مئات آلاف الطلبة السعوديين، لم تمنع عنه المصير المجهول كما في أفلام هوليوود المرعبة. انشغلت الشرطة والملحقية الثقافية السعودية بالأمر، قالوا ربّما غادر إلى الجهاد، لكن الشاب البالغ من العمر 23 عاماً لم يسجّل الخروج من أي من المطارات. عثروا على جثّته مرمية في صحراء كاليفورنيا، في مكان يبعد ساعتين عن سكنه. تبين أن الشاب عرض سيارته للبيع على موقع إلكتروني مشبوه تستخدمه العصابات لإيقاع بضحاياها. أحدث ذلك صدمة للعائلات التي تُرسل أبنائها في برامج ابتعاث تشمل دولاً وجامعات كثيرة منتشرة في أنحاء العالم كافّة.

ليست المرة الأولى. فقبل الجريمة تلك، وقعت المبتعثة ناهد المانع ضحية جريمة عنصرية بغيضة. قتلت لأنّها كانت ترتدي حجاباً أثناء توجهها إلى الجامعة في مدينة كولشستر في بريطانيا، طعنها المجرم في الصدر والرأس. وقد صرحّت الشرطة البريطانية آنذاك بأنّ «الجريمة ارتكبت في شارع مزدحم. كان الهجوم وقحاً وطائشاً، وهناك احتمال كبير أن أناساً كثر كانوا موجودين وقت الجريمة. طعنت عدداً من المرات (16 طعنة)».

الابتعاث إلى الخارج مبادرة من الملك عبد الله بغية النهوض بالمستوى العلمي للبلاد وخلق جيل جديد يمسك دفة المشاريع، بدل الاعتماد على العقول المستورَدة من الخارج. البرنامج يجذب عدداً كبيرا من الشباب لتجربة العيش في الخارج، غير أنّه ينال الكثير من النقد لإسهامه في عودة جيل يرفض عادات المجتمع وتقاليده المتوارثة، ولإحداثه انفتاحاً هائلاً وتغييراً في نمط التفكير أدى إلى العديد من الصدامات بين من يعودون بعد سنوات الابتعاث ومن يعيشون في الداخل.. مما يثير سؤالا أول عن هذه الهوة التي لا يُعقل أن يتم إغلاقها بالانغلاق عن العالم، والدعوة للاكتفاء بما تعوّد عليه الآباء والأجداد، وبصون التقاليد فحسب. ثمة انفصام هنا، وكلل انفصام، فيه طرفان.

وقد يرى البعض الابتعاث الكثيف ذاك سبباً في إبطاء عملية نهوض القطاع التعليمي الجامعي المحلي بحكم إرسال مئات الآلاف من الطلبة إلى جامعات الخارج، وأنه إهدار لحظوظ الفئات الباقية على أرض المملكة بجامعات تتخبط بشهادات لاختصاصات لا تنفع للمنافسة. ويتساءل الكثيرون عما إن لم يكن من الأفضل التركيز على بناء جامعات في كل أنحاء البلاد تتشابه مع «جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية» بتطورها واختصاصاتها ومجالاتها العلمية وتجهيزاتها التقنية العالية... وانفتاحها في الممارسة اليومية للحياة.

ومن الطبيعي الاّ يطيق السعوديون موتاً آخر. يكفيهم تفوق شبابهم بالعمليات الانتحارية التي تُسجل في العراق، ويكفيهم بلاد الشام التي تبتلع ما يسمونه المغرَّر بهم من قبل الشيوخ ودعاة الجهاد. الأمر لم يتحول إلى ظاهرة بعد، شبيهة بالشباب المهاجر إلى ربوع الخلافة، ما زال في نطاق الحوادث النادرة المؤسفة، التي يمكن ان تقع لأي كان، سعودياً أو غير سعودي. ليس الموضوع هنا، بل هو في ما يثيره من أسئلة قد تبدو فرعية ولكنها في اللب من الأمر.

مريم ترحيني

كاتبة لبنانية مقيمة في السعودية

لماذا أنت انتقائي هكذا

ـ شوف يا عزيزي، أنا أرى أنك انتقائي جداً. لماذا مثلاً لم تعبر عن تعاطفك مع عبد السلام؟
ـ أنا عبَّرت عن تعاطفي مع عبد السلام.
ـ أه، والله؟ ولكن لا تنس أنك عبَّرت أيضاً عن تعاطفك مع عبد الحميد.
ـ صحيح.
ـ وهذا طبعاً كما تعرف يميّع قضية عبد السلام.
ـ نعم، ولكني أعبِّر عن تعاطفي مع كل الناس.
ـ إذن أنت ضد عبد السلام؟
ـ لماذا؟
ـ لأنك تعتبره واحداً من كل الناس.
ـ وما الحقيقة؟
ـ الحقيقة أنه هو كل الناس.
ـ لا. هناك أنا، وهناك أنت، وهناك عبد الحميد.
ـ تعني أن عبد الحميد واحد من الناس؟
ـ أعتقد هذا.
ـ تعني أن عبد الحميد مثله مثل عبد السلام؟
ـ أعتقد هذا.

(يصرخ) يا حقير. يا تافه. تقول إن عبد الحميد مثله مثل عبد السلام؟ هل عبد السلام له مثيل أصلاً؟ يا خائن. يا عميل. لماذا؟ كيف حدث هذا؟ كيف امتلأ قلبك بكل هذه الكراهية لعبد السلام؟ ماذا فعل لك عبد السلام؟ (يخرج التلفون ويتكلم)، يا باشا كلمته الآن. أنت صح يا باشا. غير معقول. النقاش معه مستحيل. قلبه مليء بكراهية عبد السلام. حاولت أن أفهمه ولم أستطع. مجنون تماماً. غير عقلاني. متعصب وعنصري ويكره عبد السلام بدون أي سبب منطقي. نعم يا باشا، انتقائي جداً حتى في تعاطفه. هو أخبرني بنفسه أنه يتعاطف مع عبد الحميد ولا يتعاطف مع عبد السلام. أقتله يا باشا؟ عديم الإنسانية هذا. أرجوك يا باشا، اسمح لي أن أقتله.

(نص نائل الطوخي ورسم أحمد مخلوف)

العربي السفير

متابعات

19 منظمة حقوقية، تمثل «ملتقى المنظمات الحقوقية المستقلة»، أعلنت أنها تقدمت بنحو 100 توصية للحكومة المصرية خلال عملية الاستعراض الدوري الشامل للملف الحقوقي للدول الأعضاء بمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، المنعقد في 3 تشرين الثاني /نوفمبر 2014 في جنيف.

أطفال سوريا في مصر.. ما زالت الغربة عنوانهم

عندما يشار إلى زيادة عمق التجربة عن عمر أصحابها، يتبادر إلى الذهن أطفال سوريا اللاجئين، ضمن مُشاهداتٍ كثيرة، وقد حظوا بالنسبة الأكبر بين لاجئي سوريا الوافدين إلى مصر منذ آذار 2011 وحتى الآن، حيث وصل عدد الأطفال ممن سنهم أقل من 18 عاماً إلى 630 60 انساناً من جملة اللاجئين السوريين إلى مصر الذين بلغ عددهم الرسمى 023 140 بحسب الإحصاءات الصادرة عن المفوضية السامية لشؤون اللاجئين حتى تشرين الأول 2014.

في طريقهم للغربة، ربما حملوا كثيراً من أغراضهم إلا الأرض والحلم، فما تعيش أحلام الطفولة إلا بدفء الذكريات وألفة الأماكن وقرب الأصدقاء. وفي البلد المضيف، لا حديث عن الحق فضلاً عن الحلم، إلا في ضوء الفائض وما يمكن الجود به. فما قد كان حقاً صار هبةً وفضلاً ينتظران الشكر والإذعان.

.. إلى المدرسة

يمثل التعليم لتلك الفئة العمرية شغل الحاضر ومِهاد المستقبل، لذلك كانت المدرسة هى نقطة اللقاء الأهم للأطفال اللاجئين بمصر. وقد بدت المدارس الحكومية الحاضنة الأكبر التي تلاءمت متطلباتها مع الطاقة المالية لمعظم الأسر اللاجئة. فاحتضنت حوالي 76 في المئة من التلاميذ السوريين، في مقابل 19 في المئة للمدارس الخاصة، وحوالي 3 في المئة للمدارس الأهلية ومدارس ذوي الاحتياجات الخاصة، وفقاً لما ورد في التقرير نصف السنوي للعام 2014 «خطة الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية»، الذي أصدرته المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، التابعة للأمم المتحدة.

هذا وقد سجلت مصر المعدل الأعلى لقبول التلاميذ السوريين في المدارس الحكومية بين الدول المستضيفة للاجئي سوريا عموماً، وفقاً لما ورد في التقرير نفسه، إذ تم احتواء ما يقرب من 85 في المئة من الأطفال السوريين في مرحلة التعليم الأساسي، وحوالي 70 في المئة في التعليم الثانوي. ومع ذلك، فإن الأطفال السوريين يعانون مثل أقرانهم المصريين من بؤس النظام التعليمي الذي تُسيره قوانين مهترئة ومدارس مهمشة الدور ومتهالكة القوام، كما يحركه باطنياً تدافع المصالح بين المعلمين، مضافاً لذلك الغربة التي تشكوها ملامحهم المميزة وقلتهم وسط الجموع، فضلاً عن تباين اللهجة التي تعطل التواصل بينهم وبين أقرانهم المصريين أو معلميهم على حد سواء. وتزيد الخبرة السابقة للتلاميذ بالتعليم من تعقيد الواقع الجديد، خاصة أن سوريا كانت قد سجلت تصاعداً ملحوظاً في الحالة التعليمية، حيث وصلت نسبة الطلاب الملتحقين بالتعليم الأساسي إلى 97 في المئة، والى 69 في المئة للتعليم الثانوي، فيما كانت قد نجحت في محو الأمية لما يزيد عن 90 في المئة من أبناء الشعب السوري رجالاً ونساءً، بحسب ما ورد في دراسة «توقف التعليم» الصادرة عن منظمتي الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) والمفوضية السامية لشؤون اللاجئين في كانون الأول 2013.

بين الاستقبال الرسمي والشعبي

على الصعيد الرسمي، تم إقرار المساواة بين الأطفال السوريين وأقرانهم المصريين من حيث أحقية الالتحاق بالمدارس الحكومية، كما تساويهم في كل الحقوق والواجبات، وذلك بغض النظر عن بعض الانتهاكات التي شهدتها الجالية السورية في مصر بعد التوترات السياسية التي عاشتها البلاد بعد «30 حزيران». على صعيد آخر، سجل رد الفعل الشعبي تبايناً واضحاً بدأ من الترحيب وامتد حتى الرفض والضجر بلاجئي سوريا عموماً، وقد تسربت الأجواء العامة فوصلت إلى المدرسة. وفي الحوار مع اختصاصية نفسية بإحدى المدارس المصرية، أفادت «بأن أطفال سوريا في المدارس المصرية كثيراً ما يتم التحرش بهم في سلوكيات طفولية نزقة تلمّح بفضل مصر عليهم مقابل تخلي بلدهم عنهم، ما ينسبه الأطفال المصريون إلى أنفسهم، مُعيرين به الأطفال الغرباء». وعن طرق الفصل في مثل هذا النوع من الخلافات تقول: «إن الكثافة العددية للتلاميذ في المدارس المصرية تقلل من فرصة الاهتمام بأي من التلاميذ على حدة، وهذا بالطبع سيشارك فيه السوريون التلاميذ المصريين بوجه عام، لذلك يسعى الاختصاصي النفسي والاجتماعي لفض النزاعات بين الأطفال بصفة ودية من دون التقيد بإملاءات نظامية أو رسمية – في حال وجدت». كذلك تتباين وجهات فض تلك النزاعات بحسب تباين النظرة العامة الى الجالية السورية عموماً في مصر، فبينما يُلمِح بعض المعلمين إلى ضرورة الترحيب بالتلاميذ السوريين إعلاءً للوحدة العربية وتقديراً لصعوبة الظرف الراهن وإزكاءً لروح التعاطف مع الدمار الحال ببلد شقيق، فإن البعض الآخر يتورط في مشاركة بعض التلاميذ في نزقهم بالنظرة المتعالية إلى الجالية السورية كضيوف طال مكوثهم فثقلت استضافتهم، كما معاداتهم بوجه عام باعتبار أنهم ينازعون المصريين في خيرات بلدهم التي لا تكفيهم بالأساس.

مساعٍ للاحتواء

تبذل منظمة اليونيسيف بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم المصرية جهوداً جديرة بالذكر لاحتواء الأطفال السوريين بالمدارس المصرية. ولما كان تباين اللهجة السورية عن المصرية عائقاً للتواصل شكاه الأطفال السوريون كثيراً، فقد سبقت تلك الجهود الرسمية، واستمرت بالتوازي معها، مساعٍ شعبية عملت على فتح مدارس أهلية يقوم معلمون سوريون بتدريس المناهج المصرية فيها باللهجة السورية، بحيث ينتظم فيها التلاميذ بالحضور بينما يؤدون الامتحانات في نهاية العام بالمدارس الرسمية. وبالمثل، أعلنت منظمة اليونيسيف أن وزارة التربية والتعليم المصرية قد وافقت على تسجيل بعض الأجزاء من المناهج المصرية بأداء معلمين سوريين وتنزيلها على موقع وزارة التربية والتعليم، من دون تبيان للموعد المحدد لذلك، هذا بخلاف بعض الإمدادات الأثاثية والتكنولوجية التي تُزود بها المدارس المصرية سعياً للتغلب على العبء العددي الذي أضافه التلاميذ السوريون على الفصول فوق – المشبعة بالتلاميذ المصريين، بالإضافة الى إجراء تدريبات للمعلمين على قيادة الفصول عالية الكثافة. صحيح أن المُنجز من تلك الإجراءات ما زال أقل كثيراً مما تطمح إليه المنظمة بحسب تقاريرها، إلا أنه من ألمع الجهود المبذولة ما بدأ مؤخراً من تدريب بعض الاختصاصيين الاجتماعيين في المدارس التي تضم تلاميذ سوريين، حول سبل تعزيز دمجهم الفعال في المجتمع المدرسي المصري، عبر إجراء مجموعة من الأنشطة لفئة مختلطة من التلاميذ المصريين والسوريين، تركز على إبراز المشتركات الإنسانية بين الطرفين من خلال ألعاب محددة سلفاً لتحقيق هذا الغرض، فيما يتم ذلك نظير مكافأة مالية رمزية للمتدربين المنوط بهم إجراء تلك الأنشطة ومتابعتها.

خارج جدران المدرسة

لم تنجح كل الجهود المبذولة في احتواء جميع أطفال سوريا اللاجئين، فداء عمالة الأطفال واستغلالهم وانتهاك حقوق طالهم كما يطول بعض الأطفال المصريين، وفوق ذلك برز انسداد الأفق أمام الهجرة الشرعية واللجوء الى مراكب الموت.. وهكذا اعتقلت السلطات المصرية حوالي 361 طفلاً على الأقل في محاولة للهرب منذ مطلع العام الحالي، بينما نجح بالفعل حوالي 3676 طفلاً سورياً في الهجرة إلى ايطاليا عبر البحر، منهم 585 هاجروا منفردين بدون أسرهم! (بحسب الأرقام الواردة في التقرير الشهري الصادر عن منظمة اليونيسف عن الأزمة السورية ـ تشرين الأول 2014).

مع ما بات عادة من استمرار التشكيك وإعادة النظر في كل الثوابت في الآونة الأخيرة، تقع معاناة الأطفال موقعاً فريداً في النفس، شديد الوجع عظيم الغور، لا نملك أمامه سوى الاندفاع نحو العمل على رفع المعاناة والسعي لتوفير الحقوق، والحديث عن واجب جودتها، وإلا فإننا بصدد فصل (وفصيل) جديد من الواقع المرير للإنسان والإنسانية بوجه عام!

بسمة فؤاد
كاتبة صحافية من مصر

حلم ..

علاء بدارنة/فلسطين

arabi@assafir.com

المزيد على موقع «السفير العربي»: arabi.assafir.com

ـ مهرجان السينما الوثائقية في نواكشوط وحضور قضايا التطرّف ـ أحمد ولد جدو
ـ أصحاب المعاشات في مصر: نضال مطلبي بعقل سياسي ـ محمود عبد الرحيم

على «فايسبوك»: السفير العربي ـ Assafir Arabi
على «تويتر»: السفير العربي ـ Arabi Assafir@

.. بألف كلمة

موسم الزيتون في فلسطين

تصوير علاء بدارنة – فلسطين

مدونات

أسئلة عن السحابة السوداء!

في ظلّ رفع شعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة واتجاه الفضائيات والصحف لإقصاء كل من يغرد خارج السرب، لم أجد إلاّ مدونتي لكي أطرح من خلالها أسئلة أراها بديهية.. لا أدري لماذا تستميت بعض الأقلام والشاشات في زرع بعض المفاهيم والمشاهد هي غاية في الخطورة...

«يتامى مبارك» سابقاً و«عاشقو السيسي» حالياً يلعبون على تهييج الرأي العام على كل صوت معارض أو منتقد، وذلك بنعته بالعميل الخائن الاخواني!

وكأننا إذا أردنا اثبات وطنيتنا وولائنا لهذا البلد، لا بدّ من أن نغضّ الطرف عن كل الإهمال والفوضى والفساد الذي بات مشهداً عادياً، لا ينبغي أن يثير في نفس أحد الدهشة أو الامتعاض والحسرة على حال بلد يسير من سيئ إلى أسوأ! قبل كل شيء، أنا لست كارها للسيسي وفي نفس الوقت لست احد دراويشه...

بكل بساطة أنا مواطن مصري أرى أن السيد السيسي هو موظف بدرجة رئيس جمهورية، له علينا حقوق وعليه واجبات، ولا بدّ من محاسبته على أعماله وأقواله وقراراته. فإذا أحسن وجُب شكره، وإذا أخطأ وجب انتقاده والعمل على تقويم وتصويب قراراته.

وبالتالي عندما أرى ان الحال العام بهذا السوء، فلزاماً عليّ التعبير عن امتعاضي...

من مدونة «الأغلبية الصامتة» المصرية (الأحد 26 تشرين أول/اكتوبر 2014)
http://theegyptiansilentmajority.blogspot.com

وزير الداخلية هل تسمعني؟

هناك دراسة أمام وزير الداخلية لرفع قيمة التسويات المرورية. استفهامات: يا ربي من وضع الدراسة ومن شارك فيها؟ وكيف هو شكلها؟ هل هي دراسة علمية 100 في المئة من كل الجوانب الفنية والاقتصادية والاجتماعية؟

هل رجعت وزارة الداخلية لكل أرشيفها وأحصت الحوادث المرورية منذ أن كان في السودان سيارتان؟ هل ربطت وزارة الداخلية الحوادث وقيمة التسويات المرورية؟ أي هل وجدت أنه كلما رفعت قيمة التسوية المرورية انخفضت نسبة الحوادث؟ هل التسويات المرورية عادلة؟ هل تُقام على الجميع؟

أقول هنا، ومن ملاحظتي وأنا أقود سيارة منذ قرابة عشرين سنة في السودان، انّ هذه التسويات المرورية ليست شاملة لأكثر من 70 في المئة من السيارات مهما خالفت: سيارات الشرطة، السيارات الخاصة التي يستخدمها الضباط، سيارات الجيش والتي يقودها ضبّاط. كذلك لا تُسأل سيارات المنظمات والهيئات، ولا توقف سيارات السياسيين وكبار الموظفين، فهذه جميعها معفيّة من السؤال.

إذاً من يدفع التسويات المرورية حتى الآن هم المنتجون وعامة الشعب.

كل خوفي أن بعضاً من ضباط المرور لاحظوا تدنّي العائد من التسويات المرورية مقارنةً بزمن مضى، وقرروا أن يعطوا مبررات لرفع التسوية لتدرّ للخزينة ما يملأها.

من مدونات «استفهامات» السودانية (الأحد 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2014)
http://istifhamat.blogspot.com

لعبة عض الأصابع على الطريقة الليبية!

من المؤكد أن الليبيين تستهويهم كثيراً لعبة عضّ الأصابع، وذلك لما يتّسم به معظمهم من عناد ومزاج فطري بسيط ينجذب إلى تحقيق الغلبة على الخصم، أي خصم كان، والذي قد تتمّ صناعته محلياً، كما هو دائر الآن!

يبدو أن اللعبة تحولت إلى نظام المقاولة بالباطن، وانقسمت إلى جهازين، أحدهما متخصص في مجرّد العض، وآخر مهمته صنع الأصابع القابلة أو المتطوعة للعضّ والقذف بها بين أسنان الفرقاء. وبذلك تحوّل المشهد برمته إلى خط انتاج أصابع مقطوعة، وتسجيل أهداف مجانية وغير ناضجة، بعيدا عن حكم المباراة وصفارته وقلمه وسجلاته!

اللعبة تتسع كل يوم، وتزداد درجة حرارتها، والأصابع تتساقط، والدماء تسيل. لكن أي شخص من فريقي اللعبة لم تظهر عليه أي علامة من علامات الاعتراف بالخصم وقوته، ولا حتى إمكان التوقف لبعض الوقت لحساب الأصابع المقطوعة من كلا الطرفين، واعتماد طريقة الفوز بالنقاط بدلاً من طريقة الضربة القاضية التي يعشقها الليبيون المساكين.

نعم أبرياء كثيرون يعانون، وآخرون يرغمون على وضع أصابعهم في مقصلة السياسة التي لا ترحم! بيد أن المضحك المبكي هو أن تسمع من يقول: كل تلك الأصابع الليبية المقطوعة هي لأجل ليبيا!

من مدونة «ربيع ليبيا» (الثلاثاء 28 تشرين الأول/اكتوبر 2014)
http://libyanspring.blogspot.com/